الهـدنة

مضـى اليوم الثانى بعد مجىء وفد بنى أسـد إلى امرئ القيس، وكان عامر بن معاويـة الجون يقضى معهم أكثر الوقت فى مجاملة وترحيـب، معتذرًا عـن امرئ القيس بأنه لم يسـرع إلى مقابلتهم لاشـتغاله فى إخراج ما حمل إليه من سـلاح أبيه وأمواله ومتاعه، وكان يحـاول جهـده أن يفهمهم أن غيابه ليـس لإعراض عنهم، أو اسـتخفاف بشـأنهم، خوفًا من أن تثور كبريائهم، فيعودوا من حيث أتـوا، وتتفلت من يديه بذلك تلك الفرصة الذهبية؛ فقد كان أكبر همه أن يحدث بين امرئ القيس وبينهم اتفاقًا يؤدى إلى حفظ ملك حجر فى بيته وتولية ولده فى مكانه.

ولكن امرأ القيس كان عنيدًا، وقد ذهب فى غيظه من بنى أسـد وحقـده عليهم إلى أبعـد غاية، فكان يعيد عليه الرجاء والتوسـل أن يخـرج إليهم، وينظر فيما أتوا من أجلـه؛ وهو يدافع ويمانع، ويأبى أن يلقاهم على غير الحرب وطلب الثأر.

ولكن عامـرًا كان يرى الحكمة فـى أن يتجنب الحرب ويرضى من الثأر بقتل أحد عظماء بنى أسـد، لكـى يبلغ ما كان يقصده من إعادة الملك إلى امرئ القيس. ولهذا تحمل ما تحمل من قول الشاب الحانـق، وصبر مـا صبر على ما وجهـه إليه من قـوارص الكلم.

وكان يقضى اليـوم مع الضيوف: يجاملهـم ويحييهم ويثير فيهم أمل السـلام والموادعة؛ فإذا ما عاد إلى امرئ القيس جعل يراجعه ويناقشه، ويتوسل إليه، ويظهر له وجوه مصلحته فى مسالمتهم.

فلمـا كان عصر اليوم الثالـث من مجيء الوفد ذهـب عامر إلى خيمة امرئ القيس فوجده عند بابها فوق الرمال وسـيف أبيه بين يديه قد ركزه فى الأرض، وجلس مطرقًا، يلبس عمامة سوداء دليلا على ما عقد عليه النية من القتال.

فوقـف أمامه حتى رفع بصره إليه فوجد عينيه محمرتين ورأى على وجهه تجهمًا وغيظًا، فألقـى عليه تحية الملك قائلا: «أبيت اللعن أيها الملك الهمام».

قال امرؤ القيس ولا يزال متجهمًا: «عم صباحًا، عمَّاه».

ثم عاد إلى إطراقه.

فصمـت عامر لحظة ثم قال: «قد عزم القـوم على الرحيل اليوم بعد أن أقاموا ثلاثًا».

فقال امرؤ القيس وهو مطرق: «وما يضيرنا لو ذهبوا».

فأحس عامر عند ذلك كأن سـهمًا قد أصاب قلبه، لأنه كان يظن بعد تكرار توسله ومراجعته أن امرأ القيس قد عدل عن عناده، وأنه يلقى القوم ويفاوضهم فيما يبلغ به ثأره ويستعيد ملكه ويحقن دماءَ قومه؛ ولكنه رأى من ذلك الجواب أن ظنه قد خاب، وأنه لا يجديه بعدُ أن يطيل الجدال والمناقشـة؛ فالقوم لابد سـائرون إلى أرضهم

بعد ثلاثة أيام قضوها فى انتظاره. وسيذيع ذلك بعد العرب ويحدث فيهم بغير شك أثره. ودب اليأس إلى قلبه وثارت فى نفسه عوامل الغضب، لأنه رأى فى إصرار الشاب على رأيه وإبائه طاعته مع كل توسله - رأى فى ذلك استخفافًا به وبمشورته، وهم أن يلقى إليه قولا شديدًا، ولكنه كظم غيظه.

وأطرق حينًا يفكر ويقلب الرأى على وجوهه ويلتمس الحيلة فى أمر هذا الفتى العنيد الذى يوشك أن يفسد كل تدبيره بحمقه وصلفه، ثم رفع رأسه وقال متكلفًا الهدوء: «إذًا فأنت لا تريد أن تلقى القوم لترى ما عندهم؟».

فقال امرؤ القيس وكأنه أحس بما ثار فى نفس عامر من الغضب: «إذا كنت تحب أن ألقاهم فإنى أطيعك».

وسكت لحظة قصيرة ثم أستأنف قائلا: «ولكنى لن أرضى بأن أجعل دم أبى كفيئًا لدم أحد منهم. لقد علمت العرب أنه لا كفء لحجر فى دم».

فصمت عامر ونظر إلى ناحية من الوادى، ولم يرد أن تقع عينه على عين الشاب، فقد كان عند ذلك وشيك الدفعة قريب الغضبة، ثم قال فى شىء من الجفاء: «إذا شئت فالآن».

فقام امرؤ القيس من مكانه صامتًا ونزع سيفه من الأرض فعلقه فى حمائله ولبس قباء من الحرير وخفًا من الجلد، ومشى نحو الخيام التى كان بنو أسد يقيمون بها عند أقصى الوادى، وسار عامر مطرقًا فى آثاره حتى بلغا الخيام.

كان القوم عند ذلك جلوسًا فى ساحة فسيحة بين الخيام، قد اجتمعوا فيها فى انتظار عامر بعد أن أبلغوه فى الصباح أنهم عازمون على الرحيل، وكان عامر قد طلب إليهم أن ينتظروا ريثما يعود إليهم مع امرئ القيس، وكان فى الجمع جماعة من كندة، ومن بعض من اجتمع من شيوخ قبائل اليمن النازلين على مقربة من ذلك الوادى. يتحدثون فى هدوء، وقد تفرقوا جماعات منهم الشبان ومنهم الكهول، وكل منهم يلتف بمن يشاكله؛ فلما ظهر امرؤ القيس وعامر يسير وراءه قاموا جميعًا ناظرين إليهما فى صمت يشبه أن يكون خشوعًا، وقد بدا عليهم العطف على الفتى والرثاء لما أصابه.

ولما صار امرؤ القيس على خطوات منهم أومأ بالتحية وقال فى صوت خافت: «عِمتم صباحًا».

فردوا جميعًا على التحية فى أصوات مختلفة، وتقدم قبيصة ابن نعيم فوقف حتى صار فى وجه امرئ القيس وقال: «أبيت اللعن يا بن الأكرمين».

ثم بدأ يتكلم عن الوفد، والكل ينصتون إليه، وكان صوته الهادئ يرن فى ذلك السكون رنينًا عميقًا يبعث الرهبة، ولفظه الواضح يسترعى الأسماع ويقع فى القلوب، وبيانه الفصيح يملأ قلوب قومه إعجابًا به، وارتياحًا إلى نيابته عنهم. فذكر قصة حجر ومقتله، ثم أحسن عزاء امرئ القيس فيه، وعدد محاسنه وكرم محتده؛

ثم قـال بعد أن بلغ ما أرضاه وأرضى قومه من ذلك: «ولو كان يفدى هالك بالأنفـس الباقية بعده، لما بخلت كرائمنـا على مثله ببذل ذلك، ولفدينا حجرًا منه، ولكن مضى به سبيل لا ترجع أولاه على أخراه، ولا يلحق أقصاه أدناه».

ثم مـد يده نحو امرئ القيس وقـال: «فأحمد الحالات فى ذلك أن تعـرف الواجـب عليك فى إحدى خـلال: إمـا أن اخترت من بنى أسـد أشـرفها بيتًا، وأعلاها فى بناء المكرمات صوتًا، فقدناه إليك بنسعة، فيذهب مع شفرات حسامك عنقه».

فتحـرك عند ذلك امرؤ القيس ضجرًا، والتفت إلى عامر التفاتة حنـق لم يخف معناها على قبيصـة. فوقف صامتًا، وأطرق لحظة، ثم رفع رأسـه، وقد تغير مظهره فاكتسى شـيئًا من الحدة، وعلاه شـىء من التحدى، ورفع رأسه، وتكلم مرة أخرى؛ ولكنه كان عند ذلك أعلى صوتًا وأقل خشوعًا، فقال: «فإن أبيت هذا ففداء بما يروح فى بنى أسـد من نعمها، فهى ألوف تجاوز الحسـبة، فيكون ذلك فداء ترجع به السيوف إلى أجفانها، فلا تسلط الإحن على البُرَآء».

فبـدا عند ذلك الكره فى وجه امرئ القيس، وهم أن يتكلم، لولا أن أمسـك عامر بذراعه من ورائه، وسـكت قبيصة لحظة أخرى، ولما عـاد إلى الكلام كان صوتـه أجش، ووجهه محمـرًّا، وعيناه تلمعـان. فقال: «وإن أبيت، فوادِعْنا حتى تضع الحوامل، فنسـدل الأزُر، ونعقد الخمر فوق الرايات».

ولمـا أتم قوله شـمل الجمـع سـكون، كأنه هـدوء الريح قبل العاصفة؛ وتحرك شـبان بنى أسـد وهم ينظرون إلى امرئ القيس، وتحرك شبان كندة، وانحازوا إلى جانب جميعًا، حتى وقفوا وراء أميرهم الشـاب، وقد علاهم مظهر الغضب والتحدى؛ وتقدم عامر حتى وقف إلـى جانب امرئ القيس، ورفع رأسـه، وجعل يعبث بلحيتـه فـى هدوء يخفى ما تحتـه من الثورة. فقـد رأى من قول قبيصة أن بنى أسد إنما يعرضون السلام ظاهرًا، والسيوف من تحت ثيابهم مسـتترة، وأنهم لم يأتوا كما ظـن خاضعين يعرضون المُلك على امرئ القيس فى خشوع وندم على ما فرط منهم، بل جاءوا وهم أقرب إلى التحدى والمنافرة منهم إلى المسـالمة والموادعة. وكان امرؤ القيس عندما بلغ قبيصة ختام قوله قد أطرق متكئًا على سيفه، ووجهه متجهم مربدٌّ، فاتجهت العيون كلها إليه، وأرهفت الأسماع لما يجيب به، فرفع يده إلى عينيه فمسح دمعة كانت تجول فيهما ثم نظـر إلى القوم، وقد انتفخت أوداجـه، وعقد ما بين حاجبيه، وبدأ يتكلم وهو يحاول كتمان ما يثور فى نفسـه من الغضب، وكان صوته متهدجًا، ونبراته متقطعة، وأنفاسه مضطربة، قال:

«لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر فى دم، وأنى لن أعتاض به جملا أو ناقة، فأكتسب بذلك سُبَّة الأبد، وفتَّ العضد. وأما الموادعة والنَّظِرة، فقد أوجبتها الأجِنّة فى بطون أمهاتها. ولن أكون لعطَبها سببًا. وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل فى القلوب حنقًا، وفوق الأسنة عَلَقًا».

ثم سكت لحظة ونظر حوله فى وجوه القوم، واتسعت عيناه، واستأنف قائلا:

إذا جالت الخيل فى مأزق تصافح فيه المنايا النفوسا

ثم نظر إلى قبيصة نظرة خاطفة، وقال وهو رافع رأسه: «أتقيمون أم تنصرفون؟».

فأسرع قبيصة فقال وعيناه تبرقان: «بل ننصرف بأسوأ الاختيار، بمكروه وأذية، وحرب وبلية».

ونظر إلى قومه وتحرك يريد الذهاب، وبنو أسد يتحركون وراءه، حتى إذا ما صار على خطوات من امرئ القيس نظر إليه وقال وهو يحرك سيفه تجاهه فى الهواء:

لعلك أن تستوخم الموت إن غدت كتائبنا فى مأزق الموت تمطر

فرفع امرؤ القيس سيفه وحركه فوق رأسه وقال وهو ينظر إليه: «لا والله لا أستوخمه، فرويدًا ينكشف لك دجاها عن فرسان كندة، وكتائب حمْير».

فتقدم إليه عامر وجذبه من مؤخر قبائه وهمس فى أذنه كلمة. فقال امرؤ القيس متجهًا إلى قبيصة: «لقد كان غير هذا أولى بى، إذ كنت نازلا بربعى، ولكنك قلت فأجبتُ».

فمضى قبيصة فى طريقه وهو يقول: «لا عليك يا امرأ القيس. إن ما نتوقع من الحرب فوق قدر المعاتبة والإعتاب».

ومضى القوم إلى مناخ الإبل فأثاروها ثم ركبوا، وساروا حتى اختفوا وراء جانب الوادى، وامرؤ القيس ينظر فى آثارهم وعامر مطرق إلى جانبه قد علاه الوجوم، وشيوخ كندة من حولهما صامتون؛ ثم ساروا جميعًا عائدين إلى خيامهم، ووقف شبان كندة فى الفضاء الفسيح يضجون فى حديثهم الغاضب، كأنهم يستعجلون القتال.

ولما بلغ امرؤ القيس منازله كانت الشمس قد اختفت وراء غطاء كثيف من السحب الداكنة، وهب الهواء واشتد برده فجأة، حتى اضطر أن يدخل إلى خيمته، ودخل معه عامر وجماعة من شيوخ كندة.

وكانت الخيمة فسيحة من خيام حجر التى حملها عامر فيما حمل من متاعه، وقد فرشت بأنواع من بسط فارس وأذربيجان، ووضعت فى جوانبها مقاعد وثيرة مما كان الملك حجر ينصبه لاستقبال ضيوفه من قواد فارس وأمرائها، إذا حلوا فى بلاده للصيد، أو أقبلوا إليه فى سفارة؛ فجلس امرؤ القيس فى الصدر، وأجلس عامرًا والشيوخ فى جواره، وأخذوا يتذاكرون ما كان، ويتدبرون فيما هم فاعلون للاستعداد للحرب التى لابد منها.

وفيما هم فى ذلك أقبل عليهم عبد، فوقف عند باب الخيمة وهو يلهث، وحاول أن يتكلم فخانته أنفاسه، فصاح به امرؤ القيس: «ماذا أصابك؟ هل من خوف؟».

فهز العبد رأسه ثم قال فى لفظ متقطع: «هند، أقبلت هند بنت حجر فـى ركبها، وكنت فـى الإبل أرعاها فـى وادى (عارض)، فبعثتنى لأحمل إليك نبأها».

وكان امرؤ القيس وهو يسـمع قول العبـد ينظر إليه فى لهفة، ومنذ سمع اسم هند وثب حتى أمسك بذراع الرجل، فلما انتهى من قوله، قال له فى شبه صيحة: «وقد نزلت هناك؟».

فقال العبد بعد أن اسـتعاد أنفاسـه: «بل هى تسير فى آثارى، وقد أتيت إلى هنا مسرعًا».

فنظـر امـرؤ القيس إلـى عامر وقـال مبـادرًا: «نسـير إليها يا أبا الجون؟».

فأسـرع عامر إلى مرابط الخيل، وصاح بمن كان هناك من الخدم أن يقربوهـا، وما هـى إلا لحظات حتى كانـت الخيل تعلو جانب الوادى متجهة نحو وادى (عارض) وهى تحمل امرأ القيس فى جمع من شيوخ كندة وكهولها لاستقبال الأميرة الجميلة التى فجعت فى أبيهـا، وأقبلت إلى أرض قومها باليمن، خائفة من المقام فى أرض بنى أسد - هند بنت حجر.

* * *